العصر ومستقبل الحوار

لقد تمت هندسة العالم اجتماعياً بطريقة أفسحت المجال لكل الجهات والمشاريع، سواء كانت مشاريع حوار أم صدام، فلم يعدم مالكو القوة وشهوة السيطرة الأسباب والأساليب للضغط على الآخرين في سبيل الحصول على الامتيازات، فكانت صناعة المآسي ممتدة عبر التاريخ، منذ قابيل وهابيل، إذا أخذنا بالأساطير الرمزية لمشاريع القداسة، وكانت أنهار الدماء فياضة باستمرار.

وإذا كانت سمة الحياة هي الصراع فإن المراحل التي لا يصل فيها هذا الصراع إلى الصدام إنما يكون هادئاً حيث ينتعش دور اللغة، فهي التي نطلق عليها أوصاف الحوار.

وإذا كانت محطات الصدام معالم بارزة في تاريخ البشرية، حيث أن للصدام صوته المسموع، وضجيجه الذي لا يخفت، ويمكن تحديده زمنياً (من ـ إلى)، فإن الأزمنة المتبقية هي أزمنة الحوار، وهي تتميز بصوتها الخافت وقلة ضجيجها، بل قد يكون الحوار جارياً في حمأة الصدام، لأن الإفادة من دروسه وتعرف كل طرف إلى تقنيات ومعارف وأساليب الطرف الآخر خلال الصدام المسلح، هو شكل من أشكال الحوار مع عقله الذي أنتج هذه التقنيات والمعارف والأساليب.

وإذا كان الصدام قد توقف قليلاً ليعاود نشاطه، فإن الحوار لم يتوقف، بل كان دائم النشاط، وهذا ما جعلنا نقول إن تاريخ البشرية يغلب عليه الحوار، وإذا كانت بؤر الصدام تنتقل من مكان إلى آخر فكل الأمكنة كانت ميداناً للحوار.

لقد أشرنا إلى ارتباط الصدام بالمصالح، بالتالي كلما اشتدت وتيرة المصالح بروزاً، كانت أدعى إلى الصدام، ولهذا وجدنا أن الحضارة الحديثة لم تخفف من

الصدامات، بل زادتها لازدياد عمل المصالح وقدرتها على تحريك القوة لحمايتها، والمصالح مرتبطة بالأطماع والمبررات تجري فبركتها عند الحاجة.

كان تطور العلم وتقنياته يترافق باستمرار بتطور على المستوى المجتمعي، ويبدو انعكاس التطور في الانتقال من المجتمع الأهلي الذي يعتمد في تنظيمه على القرابة، سواء كانت قرابة الدم(عائلة، عشيرة، قبيلة، قوم...الخ) أو قرابة العقيدة(طائفة، مذهب، ملة، دين...الخ) والحوارات في هذا المجتمع حوارات مغلقة تجري غالباً بين الفئات والكتل الصلبة.

كان التطور الذي تم الانتقال إليه مع بداية عصر النهضة في أوربا هو طور المجتمع المدني، ولم يكن ذلك ممكناً لولا التطورات التي أحدثتها النهضة على مستوى الحياة والمجتمع، وقد أخذ ذلك فترة امتدت على مجمل القرون التي استغرقتها النهضة ولا تزال، فالمجتمع المدني ليس ضربة لازب.

لقد أثبت المجتمع المدني حتى الآن فاعلية واضحة في تنظيم المجتمع، كما أثبت فاعلية في تطوير الحوارات بين الكتل الاجتماعية المتشابهة الأسس والقيم والمصالح حتى، فالأحزاب والنوادي والاتحادات والجامعات والقوى الأخرى، تسعى دائماً لإقامة الروابط مع مثيلاتها في بلدان أخرى وهذا ما ساعد على إنجاز حوارات كان لها دور كبير في تلطيف المناخ وتقليل الصدامات.

والمجتمع المدني بكتلته الصلبة المتمترسة بمصالحها وميزاتها وآفاقها الفكرية ذات الحدود الواضحة، يستدعي الدولة أو السلطة لتكون حارسة لحدود هذه الكتل، وضابطة لإيقاع الحراك الذي تقوده، كي لا تشتط في امتداد مصالحها وحدودها فيكون لا بد من الصدام.

يقول تيري إيجلتون: ((ففي المجتمع المدني، يعيش الأفراد في حالة من العداء والخصومة المزمنة، مدفوعين بمصالحهم المتعارضة، أما الدولة فهي ذلك العالم المتعالي الذي يمكن فيه التسوية بين هذه الانقسامات وإحلال نوع من الانسجام بينها، وكيما يتم هذا، لابد للدولة من أن تكون فاعلة في المجتمع المدني ومؤثرة فيه أصلاً مخففة من أحقاده ومهذبة لحساسياته، وهذه العملية هي ما يعرف باسم الثقافة)). (1)

إن معطيات أخرى تبرز في الحياة توحي بتراجع القدرة على السيطرة على هذه الكتل وضبط الحدود، في ظل تجاوز العمل على الأرض للعمل في الفضاء، وعبر شبكات المعلوماتية التي تصعب سيطرة السلطات عليها، بالتالي فستكون مدعاة للتحلل من الضوابط التي تمت الإشارة إليها والمحروسة من قبل الدولة، مما يؤدي إلى انفلات المصالح والغرائز والأطماع.

بالتالي، فإن ما بدأ يشير إلى أنه سيتحرر من القيود، أو بدأ فعلاً بالتحرر منها، هو الحوار، ليدخل مرحلة لا تستطيع أية قوة أن تضبطه، خاصة عندما يكون مجاله الفضاء الرحب، وشبكات المعلوماتية، باقمارها الصناعية، أو بالأحرى عصارة جهد العقل البشري في ايجاد تواصل بلا عوائق.

لم تعد الباخرة والطائرة والسيارة وغيرها أدوات جمع الإنسان بالإنسان، لقد أصبح الاجتماع افتراضياً على شبكة الانترنت، وهذا يحدث دون جهود تذكر، بالتالي يمكن أن يكون مستمراً دون انقطاع ودون سفر وتذاكر وجوازات ومواعيد، بالتالي تكون إمكانية الحوار مع أكثر من طرف أو جهة واردة خلال وقت واحد تقريباً.

هذا المناخ الجديد يفترض تطوراً يوازيه على مستوى المجتمع وتواصله الحواري، هذا البديل للمجتمع المدني هو (المجتمع التداولي)، ويرى علي حرب أن((تحولات هائلة ومتسارعة تقابلها أزمات مفاجئة ومتلاحقة)) تحدث في العالم، يحاول أن يرصد أشكالها وأعراضها ومظاهرها بالتالي المتغيرات والاستجابات، في كتابه((العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغة التداول)). (2)

لقد أصبح الواقع الذي تتيحه الثورة الرقمية واقعاً افتراضياً يتحكم بسير العالم، وقد أصبح الزمن زمناً فعلياً يجري فيه البث من مكان إلى آخر بسرعة الضوء، مما يجعل المرء على عجلة من أمره، بالتالي فقد تغير المكان كما تغير الزمان، فقد انطوت المسافات وتآكلت الحدود، و((بهذا المعنى تحول المكان من موطن مسيج إلى فضاء سبراني مفتوح لتدفق المعلومات بصورة متواصلة)) كل هذا ساعد على إحداث تغير في الهوية لأن إمكانية إحداث روابط جديدة بين بشر جدد هو أمر مفترض إلى جانب العلاقات العادية القائمة على اللغة أو العرق أو الدين

والأرض، لقد أصبح الاقتصاد معرفياً بفعل ثورة المعلومات وتم استبدال الموارد المادية بالموارد المعلوماتية اللامتناهية، كما أصبح العالم الأداتي مختلفاً تقوده الحاسبات الذكية والأدمغة الآلية وتطغى فيه برامج المعلومات وشبكات الاتصال وأصبحت إمكانية خلق عالم من الخيال عبر الوسائط الفائقة والمتعددة والروابط الافتراضية، وأصبحت اللغة هي لغة الأرقام بدل اللغة المكتوبة والمقروءة والمنطوقة، اللغة الرقمية ((هشة وعابرة لكنها ذكية وذات طاقة إعلامية هائلة)) متناهية الصغر وغير متناهية الموارد وهي صناعية وعالمية. (3)

هذه التحولات الجذرية ((تخريبط)) علاقة المرء بمفردات وجوده بقدر ما تزعزع مرجعياته وتجاربه، فتخلق عالماً جديداً، تبدو أزماته بكثرة الحديث عن النهايات، من نهاية التاريخ والجغرافية إلى نهاية المثقف والأيديولوجيا أو الملكية...الخ وهذا دليل أزمة. (4)

هذه الأزمة تبدو مظاهرها في عدم الاستقرار، أي ((الحركة الدائمة التي تجعل من المتعذر السيطرة على قوانين التغير أو التحكم بنظام الأشياء)). تبدو في الاقتلاع أي تفجير علاقة المرء بالمكان، الأمر الذي يدمر العلاقة التقليدية القائمة، وتتزعزع الثقة عندما تفقد الأشياء ثباتها وصلابتها وتتزعزع أسسها وركائزها، ثم تضعف السيطرة على المشكلات من قبل الدول والحكومات، ويسيطر على الجو رعب تقني نتيجة عدم القدرة على التنبؤ والتوقع لآفاق التطور، إن مأزقاً وجودياً حقيقياً ينتج عن انهيار المشاريع الأيديولوجية وتصدع الروايات الكبرى حول العالم بسبب الطفرات المعرفية، مما يؤدي إلى قلق وجودي بسبب فقدان البوصلة المعرفية والوقوع في الدوامة العملية. (5)

((إننا إزاء عالم يتحول في خريطته وبنيته أو في نظامه وايقاعه أو في قواه وفاعلياته، وبصورة تبدو معها الأزمات كأنها الظاهرة وليس الاستثناء)) .(6)

كل هذا يشير إلى أن المجتمع المدني في مأزق مفهوماً وشعاراً ومضموناً. (7) بالتالي فإنه يصعب الإصلاح باعتبار تغير الأسس التي قام عليها هذا المجتمع كما حدث مع تغير الأسس التي كان يقوم عليها المجتمع الأهلي، وهذا ما يفرض التوجه نحو المجتمع الذي يطلق عليه ((المجتمع التداولي))، وكلمة تداولي تحيل إلى الحوار

ومناخاته ومفاهيمه، وبالتالي فالحوار أهم أسسه، لكن ليس بالضرورة الحوار الذي تعودنا عليه سابقاً، إنه الحوار الذي يستغل متغيرات العصر والوسائط.

يوضح عالم الاجتماع البريطاني أنطوني جيدنز طبيعة الحوار الجديد المطلوب وهدفه، فيقول:

((فالديمقراطية الليبرالية هي مجموعة من المؤسسات النيابية التي تهتدي بقيم معينة، ولكن ديمقراطية المداولة تهيء طريقة للحصول، أو لمحاولة الحصول، على اتفاق بشأن السياسات في المضمار السياسي، ويرى دافيد ميلر على سبيل المثال أن المثل الأعلى للمداولة((يبدأ من مسلمة تفيد أن الأفضليات السياسية سيجري بينها نزاع))، ويقول مردداً كلام جورغن هابرماس، ((لكي يكون حسم النزاع ديمقراطياً يجب أن يجري من خلال مناقشة صريحة وغير قسرية للقضية موضوع الخلاف بهدف الوصول إلى حكم متفق عليه))، وليس القصد أن يتم الاتفاق مباشرة من خلال هذا النقاش، ويمكن أخذ الأصوات ولكن الشيء المهم أن يصل المشاركون إلى حكم على أساس ما سمعوه من حوار وما قالوه)). (8)

ليس هدف المداولة الوصول إلى نتيجة حاسمة وصحيحة كما يوضح عالم الاجتماع البريطاني جيد نز، المهم من حيث الشكل إتاحة الفرصة لكل وجهات النظر أن تجد طريقها عن طريق الحوار إلى الآخرين، وهذا ما لم تكن تتيحه الديمقراطية سابقاً: ((ويفيد مفهوم المداولة التأكيد على الطريقة التي يجري بها الحوار الصريح ليشمل جميع وجهات النظر والاستماع إليها لكفالة شرعية النتيجة حين يبين للمتحاورين أنها تعكس حوارهم فيما سبق، ولن يكون التأكيد على المداولة من حيث هي إجراء استكشافي بحثاً عن إجابة صحيحة)). (9)

وخصائص المجتمع التداولي عند علي حرب تبرز في اعتباره له ((مجتمعاً وسيطاً)) لا نخبوياً، حيث تردم الهوة بين عمل يدوي وعمل فكري مع عمال المعرفة، وفي المجتمع التداولي لا يفكر واحد عن آخر، ومن ليس عنده فكرة يصنع بها نفسه وواقعه، يشهد على عجزه ويخسر فاعليته، ويعطي الفرصة لسواه للسيطرة، مما يفقد الشعارات والرموز مضمونها وألقها، وتتغير العلاقة بين الأفراد والمؤسسات كما بين بعضهم، والمجتمع التداولي لا يعمل بعقلية الطوبى المفارقة والأدلوجة المغلقة والقيم المتعالية على التاريخ، بقدر ما يعمل بمنطق المساومة والتسوية.

والمجتمع التداولي تعددي لا أحادي، ولا اتفاق فيه إلا على حرية المناقشة حيث لا تسحب فكرة من التداول، ولا إجماع فيه يصادر حرية التفكير والتعبير، والمجتمع التداولي تعددي، بمعنى أن الفاعل البشري ذو كينونة مركبة من تعدد الوجوه والأصوات، كما من تداخل الأطوار والأبعاد، والمجتمع التداولي مجتمع ميديائي لا تمارس فيه الحرية من خلال الديمقراطية كما في المجتمع المدني، إنه الانتقال من الديمقراطية التمثيلية إلى الديمقراطية الإعلامية بفضل ثورة المعلومات وانفجار وسائط الاتصال، وهو عالم معاش بقدر ما هو وسط مفتوح يتغذى من المختلف في الداخل كما يتغذى من الآخر في الخارج، وهو منفتح على الخارج بشكل تداولي يعني الإفادة من الخبرات المتوفرة لدى الآخرين (10).

((من هنا فإن مفهوم الاستقلال كما يمارسه أصحاب الفكر القومي والأدلوجات الوطنية، بات مفهوماً عقيماً ينتمي إلى مرحلة تاريخية يجري تجاوزها الآن)).(11)

هذه الفكرة السريعة والمجتزئة والمبتسرة عن المجتمع التداولي كما يعرضه علي حرب وغيره لا تغني عن العودة إلى حيث يمكن التعرف على هذا الطرح الغني واللافت، بما يحمله من آفاق، ولا شك أن العودة للتعرف عليه في مصادره ذات إغراء، إلا أن الإشارة إليه هنا بهذا الشكل للإحساس بأن هناك أفقاً جديداً للحوار، ليس في البيئات الضيقة فحسب، بل على مستوى العالم، أفراد وجماعات، دون أن تقف في وجهه الحواجز والمسافات، وتكاد تكون وسائطه متشابهة من حيث القدرات الفائقة واعتماد التقنيات الجديدة، وغياب الخصوصية.

إن استشراف مثل هذا الأفق يدفعنا إلى التحذير، من تغييب ذاتية الفرد وخصائص الجماعة والاستسلام للوسائط التكنولوجية المتحكمة بقدر الإنسان ومصيره وعواطفه، كما نحذر من مفاعيل الإشارة السابقة التي يطرحها علي حرب حول مفهوم الاستقلال، بالتالي خطر التبعية، بل ازدياد هذه الظاهرة وازدياد خطرها لأن من يمتلك ناصية التكنولوجيا سيكون قادراً على امتلاك ناصية الحياة، وهذا أمر واعد بصدامات لا تنتهي لأن التاريخ أثبت عدم استعداد الشعوب للتخلي عن خصوصياتها وهوياتها بالسهولة التي تفترضها فكرة المجتمع التداولي.

لا يغيب عن بالي أن الطرح جديد وهو لم يتخمر، ولم يستتبع ما يحتاجه من نقد، وما يفتحه من آفاق للتداول فيه أولاً، لكن الفكرة راقت لي بما تحمله من إمكانية للحوار وآفاقه، والتطور الممكن للإنسانية على مستوى العلاقات المجتمعية، دون أن يغيب عني ما فيه من سلبيات.

obeikandl.com

هوامش الخاتمة

1. تيري إيجلتون، فكرة الثقافة، مرجع سابق ص.24
2. علي حرب، العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغد التداول، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى، 2002.
3. المرجع السابق، ص105 فما بعد.
4. المرجع السابق، ص.110
5. المرجع السابق، ص.111
6. المرجع السابق، ص114.
7. المرجع السابق، ص138.
8. انطوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين، مرجع سابق، ص148.149.
9. المرجع السابق، ص149.
10. علي حرب، العالم ومأزقه، المرجع السابق، ص144.
11. المرجع السابق، ص149.

❖❖❖

obeikandl.com